المثقف والثقافة في رواية "قصيد في التذلل" للطاهر وطار

Intellectual and culture In Tahar Wattar's "Kassid fi attadaloul

سهيلة بوساحة *

[1] جامعة محمّد البشير الإبراهيمي برج بوعريرج (الجزائر)

الملخص:

يُحيلنا تفكير الروائي الجزائري "الطاهر وطار" إلى ما اصطلح عليه في الدراسات الثقافية المعاصرة "العمى الثقافي"؛ والذي يكشف عن نقص نقد الذات ونقد الخطاب الثقافي وكشف عيوبه؛ فلقد أفصحت روايته "قصيد في التذلل" عن أنظمة ثقافية مضمرة تُشير إلى التحولات الناهضة في المجتمع الجزائري، والمتعلقة بالسلوك والتصرفات الجماهيرية وعلاقاتها بموروثاتها الثقافية والفنية والتاريخية. ولقد عبّر الروائي في هذه الرواية عن وجهة نظر الجماعة التي ينتمي إليها، تجاه القضايا الإيديولوجية في جزائر الاستقلال كالاشتراكية والشيوعية، كما عالجت الرواية قضايا عربية، ترتبط أساسا بدور الثقافة والمثقف العربي المهمّش في المجتمعات العربية.

الكلمات المفتاحية: المثقف، الثقافة، الرواية الجزائرية ، صورة المثقف، صورة الثقافة.

Abstract: The thinking of the Algerian novelist "Tahar Wattar" refers us to what has been termed in contemporary cultural studies "cultural blindness"; which reveals the lack of self-criticism and criticism of cultural discourse and exposes its flaws; his novel "A Poem in Humiliation" revealed implicit cultural systems that indicate the emerging transformations in Algerian society, related to the behavior and actions of the masses and their relations with their cultural, artistic and historical legacies. In this novel, the novelist expressed the point of view of the group to which he belongs, towards ideological issues in Algeria, such as socialism and communism. The novel also deals with Arab issues, mainly related to the role of culture and the marginalized Arab intellectual in Arab societies.

Keywords: Intellectual, culture, Algerian novel, picture of intellectual, picture of culture.

* **سهيلة بوساحة**

مقدّمة:

المثقف والثقافة وسيلة استعملتها الدراسات الثقافية للهيمنة والسيطرة من جهة، ومن جهة أخرى، هي بطاقة تعريفية للمجتمعات، فالدراسات الثقافية بإلغائها للطبقية، جعلت الثقافة أيضا لا تخص فقط الطبقة النخبوية، وإنما عامة الناس أيضا، فهي تسعى لفهم الثقافة بكل أشكالها وقوالبها.

تطرح رواية قصيد في التذلل" للطاهر وطار، قضية التحولات الناهضة في المجتمع الجزائري، والمتعلقة بالسلوك والتصرفات الجماهيرية وعلاقاتها بموروثاتها الثقافية والفنية والتاريخية. ولقد عبّر الروائي في هذه الرواية عن وجهة نظر الجماعة التي ينتمي إليها، تجاه القضايا الإيديولوجية في جزائر الاستقلال كالاشتراكية والشيوعية، كما عالجت الرواية قضايا عربية،ترتبط أساسا بدور الثقافة والمثقف العربي المهمّش في المجتمعات العربية؛ لذلك تهدف الدراسة إلى الوقوف على:

- العلاقة الجدلية بين الأدب والثقافة، والتركيز على أنظمة الخطاب وأنظمة الإفصاح النصوصي؛ على اعتبار أنّ الرواية خطاب يحمل مختلف التمظهرات الثقافية والتحولات الاجتماعية من خلال تقديمها رؤية لعالم الواقع.
- تسليط الضوء على الصلات التي تربط النص بالمجتمع والثقافة؛ نظرا لشمولية هذا الخطاب واحتوائه الكثير من العادات والسلوكيات الجماهيرية وعلاقاتها بموروثاتها الثقافية.
- الكشف عن التغيرات والتحولات التي مسّت الثقافة والمثقف في الجزائر والوطن العربي ككل.

تتبع الدراسة منهجية تستمد أدواتها الإجرائية من ما توفره الدراسات الثقافية والنقد الثقافي من آليات تحليلية تتناسب مع موضوع البحث عن صورة الثقافة والمثقف في النص الروائي الجزائري.

1. مرجعيات النقد الثقافي:

تعتبر الدراسات الثقافية من المرجعيات المعرفية التي ساهمت في المسار التطوري للنقد الثقافي، ولقد نشأت وتأسست فعليا سنة 1964، عندما تأسّس مركز برمنجهام BRIMINGHAM للدراسات الثقافية المعاصرة" (إبراهيم، صفحة 191)؛ باعتباره مشروعا تحليليا جديد الظهور وسريع النمو يهدف إلي تحليل الشروط المؤثرة في إنتاج مختلف أنماط المؤسسات والممارسات داخل ثقافة معينة" (بوعلاق، 2016، صفحة 309)' فالدراسات الثقافية كمشروع يعنى بتحليل مختلف المظاهر والممارسات الثقافية والكيفية التي تتولد بها هذه المعاني والشروط التي ساهمت في إنتاجها داخل ثقافة معينة.

ولقد اختلفت الدراسات الثقافية في أفكارها وتوجهاتها النقدية عن باقي المجالات المعرفية الأخرى، فلقد توجهت في دراستها إلى:

- إدراج أشكال الكتابة المستبعدة وكتابات الجماعات المهمشة
- تقويض الحدود بين الحقول المعرفية المختلفة واعتمادها علي قضايا ونظريات مناهج مستقاة من الدراسات الأدبية والتاريخ وعلم الإجماع ودراسات الاتصال والسينما، وهذا ما زاد تأثيرا على الأدب، ففقد امتيازه كوعاء للقيم الكونية العامة" (،، 2005، صفحة 249)' فالدراسات الثقافية لم تفرق بين ما هو مركز وما هو هامش، كما أن إلغاءها للحدود بين الحقول المعرفية واعتمادها على نظريات ومناهج أخري جعلها منفتحة ومتشعبة في دراستها وتحليلها في نصوص أخرى غير النص الأدبي، ولذلك فقد الأدب مكانته السلطوية.
- كسر مركزية النص، ولم تعد تنظر إليه بما أنّه نص، بل من حيث ما يتحقق فيه، وما يتكشف عنه من أنظمة ثقافية، وليس النص سوى مادة خام، كما يرى (الغذامي، 2005، صفحة 17) تستخدم لاستكشاف أنماط معينة من مثل الأنظمة السردية والإشكاليات الإيديولوجية وانساق التمثيل وكل ما يمكن تجريده من النص، وأصبحت تفسره من منظور السياق الثقافي والإيديولوجي وتبحث فيه منعن جوانب أخرى تضيء النص.

وأفضل ما فعلته الدراسات الثقافية، أنها وقفت على "عمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها" (الغذامي، 2005، صفحة 18)' فالثقافة وسيلة استعملتها الدراسات الثقافية للهيمنة والسيطرة من جهة، ومن جهة أخرى هي بطاقة تعريفية للمجتمعات، فالدراسات الثقافية بإلغائها للطبقية، جعلت الثقافة أيضا لا تخص فقط الطبقة النخبوية، وإنما عامة الناس أيضا، فهي تسعى لفهم الثقافة بكل أشكالها وقوالبها.

الترويج لمفهوم الثقافة على أنها "تتعلق بطريقة الحياة برمتها ومن ثم فإنها ليست امتيازا لأية طبقة محددة أو أية نخبة فكرية" (أصطيف، 2017، صفحة 19) أين ربطوا مفهوم الثقافة بكل ما يقوم به الناس في حياتهم اليومية وما يحصلونه من مكتسبات وعادات وتقاليد، وبذلك تكون الثقافة ليست حكرا على طبقة معينة من المجتمع.

عمل باحثوا مركز برمنجهام على نقد "آراء ونظريات دعاة النخبوية واستدلوا على نقدهم بأنّ الثقافة المتعالية ليست سوى حيز محدود من الثقافة بطابعها العام، لذا ينبغي للدراسات الثقافية أنّ تغطي نطاق الثقافة الشعبية السائدة بين عامة الناس" (مُحَّدي،، صفحة 71) أين تم كسر هيمنة الثقافة النخبوية والترويج للثقافة الشعبية، لأنّ الثقافة لا بد أنّ تشمل عامة الناس.

1.1 مفهوم الثقافة:

1.1.1. المفهوم اللغوي للثقافة:

جاء في لسان العرب لابن منظور لفظ "ثَقِفَ الشّيء ثقفًا وثقافا وثُقوفةً : حذَقَهُ، ويقال : ثَقِفَ الشيء وهوسرعة التعلم. ابن دريد : ثَقِفْتُ الشيء حذَقْتُهُ، وثَقِفْتُهُ إذا ظفرت به.. ففي حديث الهجرة. وهو غُلامٌ لقِنٌ ثَقِفٌ، أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنّه ثابت المعرفة بما يُحتاج إليه" (منظور، 1996، صفحة 492)'

وجاء في المعجم الوسيط: "وثَقِفَ، فهو ثقيف وفلان، صار حذِقاً فطِنَا. (ثَاقَفَهُ) مُثاقفةً، وثِقافاً: خاصمه، وجادله بالسلاح، ولاعبه إظهارا للمهارة والحِذْق. وثقَّفَ الشيء أقام المعوجّ منه وسوّاه، الثقافة: العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيها" (وآخرون، 2004، صفحة 98) فالثقافة كما ورد شرحها في المعاجم العربية تحمل معنى الفهم والفطنة وسرعة الأخذ والظفر بالشيء.

ورد مصطلح ثقافة culture في قاموس المنهل على أنّها "الحرث والزراعة، وأُطلقت culte على العبادة والتعبد" (جبور و ادريس، 1983، صفحة 278) والثقافة كلمة منحدرة من" cultura اللاتينية التي تعني العناية الموكولة للحقل والماشية وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة، ثمّ استعملت فيما بعد للتدليل على تكوين الفكر وتربيته" (كوش، 2007، صفحة 17)، ونحن العرب نستعمل كلمة ثقافة في مقابلculture والتي ظهرت خلال القرن السادس عشر (16)، وبالضبط سنة 1549، بالمعنى الذي يرد في أغلب المعاجم الفرنسية؛ وهو المدلول الذي صنعه الأنثربولوجيون المحدثون (الدغمومي، 2001، صفحة 95)، وعرّفت الثقافة كذلك على أنّها "جميع ما ينتقل اجتماعيا في المجتمع" (الصالح، 1999، صفحة 137).

2.1.1. المفهوم الاصطلاحي للثقافة:

لقد تعددت تعاريف مصطلح ثقافة، واختلفت باختلاف وجهات النظر والتوجهات النقدية، وتعتبر الثقافة من بين المصطلحات الأكثر تعقيدا، والمصطلح الذي يعتبر أحيانا نقيضا لها، وهو الطبيعة، يوصف عادة بأنّه المصطلح الأكثر تعقدا، وأنّه مشتق من الثقافة، إلاّ أنّ الثقافة، إيموتولوجيا هي مفهوم مشتق من الطبيعة، وأنّ أحد معانيها الأصلية قديما هو "الزراعة" أو العناية بالنماء الطبيعي" (إيجلتون، 2012)، فالثقافة يكتسبها الإنسان من خلال انخراطه في المجتمع، فهي تشمل جميع العناصر المادية والمعنوية.

ويعرف علماء الأنثروبولوجيا الثقافة على أنّها "تضم كل مظاهر العادات الاجتماعية في جماعة ما وكل ردود أفعال الفرد المتأثرة بعادات المجموعة التي يعيش فيها وكل منتجات النشطة الإنسانية التي تحدد بذلك العادات" (عمر، 2008، صفحة 173) وبهذا المفهوم تضم العادات الاجتماعية وتأثر الأفراد بتلك العادات، وانعكاسها على أعمالهم في حياتهم اليومية.

ونجد مفهوم الثقافة عند علماء الاجتماع "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه" (نبي، 1984، صفحة 74) ؛مما يعني تأثير البيئة في ظهور الثقافة، التي يمكن اختصارها؛ فهي "ليست مجرد خدمة من أنماط السلوك المحسوسة، كما هو التصور العام لها، كما أنها ليست العادات والتقاليد والأعراف، ولكن الثقافة بمعناها الأنثربولوجي الذي يتبناه فيرتز هي

آليات الهيمنة، من خطط وقوانين وتعليمات، كالطبخة الجاهزة التي تشبه ما يسعي بالبرامج على الحاسوب ومهمتها هي التحكم بالسلوك" (الغذامي، 2005، صفحة 74) وتتحكم الثقافة بالسلوك والعمل، وما هو موجود في البيئة؛ معناه أنّها آلية من آليات الهيمنة على المجتمع.

ولعلّ أشهر تعريف للثقافة هو ما قدّمه الباحث الأمريكي E.B. Taylor في كتابه "الثقافة البدائية"، والذي حدّد مفهومها على أنّه "تلك المجموعة المعقدة المركبة التي تشمل المعارف والفن والأخلاق والقانون والأعراف وكلّ مهارة أو عادة أخرى اكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في مجتمع" (الدغمومي، 2001، صفحة 98).

إنّ تتبع سيرورة مصطلح "ثقافة" في ثقافتنا العربية الحديثة (الدغمومي، 2001، صفحة 104) يُؤكّد أنّه يحمل مفهومه الحديث نتيجة عملية مثاقفة، وأنّه أصبح أداة بحث للتعامل مع الثقافة العربية كمجموعة مركبة؛ فهو أيضا صار موضوع بحث حيث يتحدّد هذا المفهوم من داخل المادة التي تُوصف بالثقافة أو تعتبر شكلا من أشكالها، لكن هذا المفهوم لم يصل إلى درجة التدقيق والنسقية في الخطاب الإيديولوجي الذي تحكمه الرغبة في التواصل المحقّق للتحريض،بحيث يُصبح ملتبسا متلونا لا يستهدف توصيف الثقافة ولا جعلها موضوع بحث، ولكن أداة لممارسة أدوار سياسية عامة وخاصة.

2. **مفهوم المثقف في الدراسات ما بعد الحداثية:**

يعتبر مفهوم المثقف من المفاهيم الملتبسة، ذلك لاختلاف الآراء والتصورات النظرية حول وضع مفهوم محدد له، حيث إنّ تعريفه في اللغات الأوربية يختلف كثيرا عن تعريفه عند العرب، يعتقد ماكس فيبر max viber "إنّ المثقف يحمل صفات ثقافية وعقلانية مميزة، تؤهله للنفاذ إلى المجتمع، والتأثير فيه بفضل المنجزات القيمية الكبرى" (سعيد، 2011، صفحة 36) يكون المثقف معتدل، مهتما بقضايا مجتمعه، المحلل والذي يسعى للتغيير، والمنفتح والذي يتبنى قضاياه وفق ما تنص عليه مبادئه، إن هذا المثقف يكون فعالا وناجحا في التأثير على المجتمع لما يحمل من صفات تؤهله لذلك.

أما إدوارد شيلز edward shils فيعرّف المثقف على أنه "الشخص المتعلم الذي يمتلك طموحا سياسيا للوصول إلى مراكز صنع القرار السياسي، أو من خلال دوره المحوري الحاسم في توجيه المجتمع عن طريق التأثير على القرارات السياسية الهامة التي تؤثر في المجتمع ككل" (سعيد، 2011، صفحة 36) ميز ادوارد سعيد بين نوعين من المثقفين:

1. المثقف الذي يفكر في كيفية الوصول إلى النفوذ السياسي وامتلاك السلطة عبر منجزاته وأعماله،
2. والمثقف الذي يؤثر في السلطة وما تصدره من قرارات تؤثر على المجتمع.

إلاّ "أن ما يميز المثقف هو الوعي الاجتماعي والدور الذي يمكن أن يلعبه بواسطة هذا الوعي" (شكري، 1990، صفحة 30) إن الوعي يجعل المثقف يرى الأمور بنظرة ثاقبة؛ ينقدها ويحللها بعقلانية، حتى يكون قدوة لأفراد المجتمع.

يُمثّل المثقف "مجموعة من الناس تتميّز عن غيرها بأنّها تجعل من التفكير في الواقع العربي، والشأن العام عموما، أحد همومها الرئيسية، وتشارك في الصراع الاجتماعي والسياسي، من أجل دفع هذا الواقع حسب الرؤى التي تراها، مشاركة قد تتخذ أشكالا مختلفة سياسية وفكرية" (غليون، 1989، صفحة 17) ' فالمثقف يحمل مسؤولية التعبير عن الواقع من جميع جوانبه.

إنّ مسؤولية التغيير في المجتمع والنهوض بالأمة في أزماتها، والمساهمة في تطورها دائما تقع على عاتق المثقفين ورجال السياسة، ولذلك يعتبر الطرفان من أهم الشرائح اجتماعيا، وفي هذه الحالة التفاهم بينهما والحياد عن دوغمائية التفكير أمر ضروري من أجل مصلحة الشعب والدولة معا.

إنّ الثقافة العربية لم تتعامل مع مفهوم المثقف إلاّ بعد شيوع مفهوم الثقافة في الربع الأول من القرن العشرين، وربما بقيت كتابات الباحثين حذرة في استعمال كلمة مثقف، وكانت كلمة "طليعة" في حقبة انبثاق الحداثة أكثر استعمالا من كلمة مثقفين.

لا يبتعد مفهوم المثقف عن مفهوم الثقافة، سواء أكانت سمة يوصف بها أو يُمارسها؛ فالمثقف بالتأكيد ليس مخلوقا خرافيا أو كائنا ذا ميزات خارقة، بل هو (خليل، 2014، الصفحات 319-320):

- الداعية الثقافي الذي لا يمتهن مهنة ثقافية،
- يُنتج ثقافة بمجهود فردي
- يملك غاية إيصال ذلك المنتج إلى متلق، ليس لكسب المال أو نيل الامتيازات، وإنّما للإسهام في سيرورة المجتمع
- إنّه الباث للخطاب الواعي بنية ترشيد طغيان بعض طبقات المجتمع وفئاته، واستبداد السلطة.
- يمتلك في خطابه نواة مواجهة مواريث الجهل والغباء والقبليات المميتة والميّتة.
- المنتج لأنساق جديدة قادرة على صدّ وتهشيم الأنساق المؤسساتية المتوارثة.
- يواجه السلطة والمجتمع في آنٍ، ويُقلق ثوابت الطرفين إذا ما توافر له ملاذ ثقافي.

3. صورة الثقافة والمثقف في رواية قصيد في التذلل للطاهر وطار:

1.3. صورة الثقافة في رواية "قصيد في التذلل" للطاهر وطار:

تتجسّد صورة الثقافة في رواية "قصيد في التذلّل" من خلال تنصيب الشاعر مديرا للثقافة، أين تبدأ الرواية في كشف وتعرية التغيرات والتحولات التي مسّت المثقف والثقافة في المجتمع الجزائري؛ ممثلة في إهانة أو تذلّل فن من أهم فنون القول الثقافي وهو "الشعر" الذي فقد رسالته وفقد معه الشاعر قيمته ومكانته.

كانت السلطة تهاب الشاعر، وتخافه لأنّه مالك لسلاح الكلمة؛ التي مكنته قديما من اعتلاء السلطة، ومثال ذلك "كافور الإخشيدي" الذي قلّد حكم مصر لذكائه ودهائه وعدله؛ ولم تُخفه هجائيات المتنبي، وتصدى لها، باعتبارها تمثيلا للسلطة الثقافية.

يُحيلنا تفكير "الطاهر وطّار" إلى ما يُسمى في الدراسات الثقافية بالعمى الثقافي؛ الذي ألحق بالمدافع الرسمي عن الثقافة،ويكشف عن "نقص نقد الذات ونقد الخطاب الثقافي وكشف عيوبه" (الغذامي، سقوط النخبة وصعود الشعبي، صفحة 62)

تتجلى صورة الثقافة في الجزائر، من خلال القول: "كلّفوه بالثقافة، السيد الكبير يريد الفولكلور، وليس سوى الفولكلور باعتباره ثقافة الثورة" (وطار، صفحة 128)؛ في "ضروب التسلية التي يمكن أن تُقدّمها لنا الفنون الفلوكلورية والمسرح والشعر" (نبي، القضايا الكبرى: مشكلة الثقافة، صفحة 69)؛ لأننا تجاوزنا مشكل التفكير في الحقائق المحسوسة،على رأي مالك بن نبي، وتجاوزنا الفقر والجوع والتخلّف والبطالة... قضايا عالجها الأدب، وحارب الفكر من أجل التخلص منها، حتى تتاح لها فرصة التفكير في الثقافة المتمثلة، كما يرى المسؤول الكبير، في الفولكلور، إذ يقول: "اطلعت على برنامج النشاط الذي أعددته، وقد راق لي كثيرا، كما أُحبّ تمام، مهرجانات، حفلات وسهرات، فلكلور من كلّ نوع" (وطار، صفحة 81).

2.3. صورة المثقف في رواية "قصيد في التذلّل" للطاهر وطار:

تسعى الرواية إلى إحداث نوع من الانسجام والتكيّف مع العصر؛ وهذا المسعى يقوده المثقف؛ بوصفه سلطة مجتمعية،وبوصفه مالكا للمعرفة؛ فهو سلطة في حدّ ذاته، من خلال ما يعرفه، يتحكّم في المجتمع ويهابه هذا المجتمع،وتهابه السلطة لأنّه مالك سلاح الثقافة، وينتمي لفئة المثقفين؛ ممّا بوأه مكانة وأهمية كبيرتين، خاصة في الفكر الماركسي، وعند المفكّر الايطالي "أنطونيو غرامشي"، غير أنّ هذا الاهتمام زال بزوال/ وانهيار المعسكر الشرقي في أوروبا؛وبالتالي ليس اعتباطا أن يتحدّث "الطاهر وطار" عن نهاية المثقف في الجزائر وعن انهيار الحزب الاشتراكي؛ الذي يعني بشكل من الأشكال تخلي المثقف عن التزامه القومي، ومعناه سقوط كلّ المبادئ التي نادى بها هذا التوجه؛ بعد ما بذل المثقف جهدا كبيرا لإسماع صوت شعبه ومجتمعه، جاء المثقف المعاصر واهتمّ بكلّ ما هو جزئي، هامشي تافه، تطلبه الجماهير وتراه الوسيلة الوحيدة والفعالة لطموحاته وآماله.

1.2.3. صورة المثقف التقليدي في رواية قصيد في التذلّل:

كان الشاعر/ المثقف يواجه السلطة بأفكاره ويُناضل من أجلها؛ هذا ما نلمسه من كلام إحدى شخصيات الرواية،السيد الكبير الذي وجّه كلامه لمدير الثقافة: "نعلم أنكم تُحسنون الكلام والخطابة" (وطار، صفحة 68)، وأنّ "الاعتماد كلّه عادة عليكم" (وطار، صفحة 77)، هذه المكانة/ السلطة التي تمتع بها المثقف/الشاعر تخلى عنها بتخليه عن مهمته وخضوعه للسلطة لما أصبح يشغل وظيفة؛ مهنة مدير الثقافة، أين تحوّل إلى صوت مؤسساتي، حتى ولو أنّه يشغل منصبا ثقافيا، لأنّه تخلى عن دوره الحرّ الذي لا يخضع لأيّ نوع من السلطة المؤسّساتية.

ربما "فقدان المثقف لدوره الريادي والقيادي إنّما حدث لأنّ الناس صارت تقول رأيها مباشرة وتُعبّر عن ذوقها مباشرة، لم يعد هناك مجال لمبدع مهما كان شأنه بأن يدعي بأنّه يُعبّر الناس" (الغذامي، سقوط النخبة وصعود الشعبي،صفحة 58)؛ والدليل ما حاولت رواية "قصيد في التذلّل" أن تُصوّره، عندما تُظهر لنا مدير الثقافة مُعارضا للسلطة التي وهبها اسمه، وأعطاها حرية التصرّف فيه وفي رسالته، يُمثّل أو يكشف عن أنّه خرج أو ترك نسق ثقافي تقليدي، ليدخل نسقا ثقافيا جديدا ومعاصرا أوجدته السلطة، تتغيّر معه مهامه ودوره كمثقف تقليدي، وبالرغم من أنّه يُحاول الظهور بأنّه مُعادٍ ومعارضٍ للسلطة، ولا يخضع لها نهائيا؛ إنّما هو نوع من المجاراة للسلطة، فحتى المعارضة في حدّ ذاتها "مؤسسة نسقية تملك عيوبا مماثلة لعيوب الرسمي والسلطوي والفعلي، وكثيرا ما يكون المعارض طاغية آخر لكنّه خارج السلطة" (الغذامي، سقوط النخبة وصعود الشعبي، الصفحات 56-57).

2.2.3. صورة المثقف الهامشي في رواية قصيد في التذلّل:

أراد "الطاهر وطار" أن يُسمع القارئ صوتا من أصوات المجتمع الفاعلة والمؤثرة، أو الأكثر تأثيرا في ثقافة أيّ مجتمع، وهو الشاعر/ الشعر وخضوعهما للسلطة؛ الأمر الذي يوحي إلى أنّ هناك نسقا ثقافيا جديدا بدأ في التشكّل، أو تشكّل بفعل اللامبالاة، أو تغيير القيم والتقاليد، أو تغيّر الايديولوجيا، وهو هامشية المثقف الجزائري، يظهر ذلك في الرواية من خلال:

- تنصّل وتملّص الشاعر عن المهمة الأزلية التي أُلقيت على عاتقه.
- عجز الشاعر عن مجابهة السلطة فخضع لها؛ في الوقت الذي يحتاجه المجتمع ويحتاج رسالته؛ لأنّ "دور المثقف العربي مهم وضروري في ظل سيطرة السلطة التسلطية/ السلطوية على الفضاء السياسي والاجتماعي والثقافي في البلدان العربية، فالدولة العربية ذات الطابع الوطني والشعبوي تقوم على منطلقات تعزيز الفساد السياسي والإداري والمالي، وتُحاول دائما إغراء المثقف للانضمام إلى أجهزتها وأحزابها وقنوات سيطرتها السرية، هذا الابتزاز يجب أن يُقابل بتمرّد وعدم خضوع المثقف" (سعيد، 2011، الصفحات 37-38).

لما هجر الشاعر الإبداع وأصبح مديرا للثقافة، تخلى عن كلّ معتقداته وايديولوجياته، وكأنّ خضوعه:

- نوع من المجاراة للسلطة لمحاولة تغيير الواقع الجزائري الذي عمّه الفساد والتعفّن،

- أسلوب جديد لمجابهة السلطة،
- حيلة من المثقف ليكون قريبا من الداء حتّى يُعالجه،
- محاولة منه لاسترجاع مكانة المثقف في المجتمع وجعله يُشارك في التظاهرة الاجتماعية من جديد، ومعالجة قضايا الأمة؟

نستدل على خضوع المثقف الجزائري للسلطة، وتخليه عن مبادئه وإيديولوجياته بما جاء في الرواية: "أنا تابع لوزارة الثقافة، أتلقى منها الأوامر، وحرٌّ في تسيير الميزانية، من ناحية أخرى أنا مهيكل في هذه الولاية، لا أستطيع أن أتنفس إلاّ بمشيئة السيد الكبير" (وطار، صفحة 80)؛ المثقف الجزائري يُقايض الحرية في التصرف المادي/ المال بالحرية الفكرية/ الشعر؛ إلاّ إنّه يُحاول، ومن خلال تقديم استقالته أن يُلفت الانتباه إلى أنّه لم يتخلّ عن أفكاره ولا مبادئه، ولا حتّى عن مهمته الثقافية التي كانت موكلة له، لأنّها وظيفة تنضوي تحت ما يُصطلح عليه الثقافة.

حرية المثقف الخاضع للسلطة، لا تتعدى الماديات؛ باعتباره حرا في تسيير الميزانية، أمّا ما هو غير مادي، الوعي والفكر لا يجرؤ على التلفظ به، إلاّ إذا سمحت له السلطة.

من صور الخضوع والهامشية للمثقف الجزائري، كما تمثله الرواية، أنّه لما قُدّم برنامج ثقافي للمسؤول (من قبل الموظف زينونات) وهو برنامج يجهل أمره مدير الثقافة، وتولته جمعية ثقافية مستقلة عن دار الثقافة، ثارت ثائرته؛ لأنّ، في رأيه، المحاضرات والندوات والمسرحيات التي تتعرض إلى سلطة البلاد كلّها ثرثرة لا تجلب إلاّ الأذى "ابعد عن البلى يبعد عليك" (وطار، صفحة 80) كما جاء في الرواية.

3.2.3. صورة المثقف اللامنتمي في رواية قصيد في التذلّل:

نقف من خلال رواية قصيد في التذلل على صورة للمثقف اللامنتمي (الباردي، 1993، صفحة 110) للسلطة، وهو المحاضر الذي تعمل السلطة بما تملك من نفوذ وتسعى إلى إبعاده عن الساحة الثقافية؛ المحاضر/ المثقف الذي كان وما يزال مشكلتها الوحيدة التي لم تتمكن من التحكّم فيها، تحكّمت في مختلف الفئات الثقافية، عدا المثقف الملتزم بقضية "المغني يمكن أن نطلب منه نوع ما سيُغني، الراقص يمكن أن نوقفه في أيّ لحظة بإيقاف العازف، أمّا المحاضر فلا يمكن أن نتحكم فيما سيقول" (وطار، صفحة 82)، اغتاظ من الأمر لأنّه يُمثّل السلطة، ولأنّ الدولة تسعى من خلال دعمها المادي إخماد الفكري؛ "نعطيهم الدعم ويظلون مستقلين" (وطار، صفحة 83)، فالسلطة لا تقبل باستقلال جهة عنها،وتُقرّ باستقلال الجزائر بالدم وتُهمّش دور المثقف (الشعر، الفكرة) في الحصول على الاستقلال؛ وهنا يستحضر الكاتب مقولة لمسؤول جبهة التحرير، "الشريف مساعدية" على لسان شخصية المسؤول الكبير: "نحن حصلنا على هذا

الاستقلال، ونحن نعرف كيف نتصرف فيه ونفعل به ما نشاء، اكتسبناه بالدم، ومن له قدرة على انتزاعه منّا فليتقدّم" (وطار، صفحة 83).

السلطة تبغي مثقفا تابعا/ منتميا خاضعا لأحكامها، مهمته إراحتها من المتاعب التي أنهكها بها المثقف التقليدي؛ الذي ترصّدها وواجهها بكلّ وسائله، أما المثقف المعاصر فقد تجاوز هذا الأمر وتخلى عنه: يقول السيد الكبير: "استبعدت ما كان سلفك يُرهقنا به من الكلام الفارغ، مثل المحاضرات، والندوات، ومسرحيات تعرض لسلطة البلاد..." (وطار، صفحة 81).

4.2.3. صورة المثقف العضوي في رواية قصيد في التذلّل:

يقسّم المثقف، بالنظر إلى الدور الذي يُؤديه، إلى مثقف عضوي، وآخر تقليدي؛ يُمثّله لنا في الرواية الشاعر الذي تحوّل إلى مدير للثقافة، لأنّه يحمل نفس مميزات المثقف التقليدي، من أمثال: "...المعلمين، ورجال الدين، والإداريين؛ ممن يواصلون أداء العمل نفسه من جيل إلى جيل... يبدون وكأنّهم باقون في أماكنهم، يُؤدون نوع العمل ذاته" (سعيد، صور المثقف، 1993، صفحة 22).

يرتبط المثقف العضوي، على نحو مباشر بطبقات أو مؤسسات تجارية تستخدم المثقفين لتنظيم مصالحها، واكتساب المزيد من القوة وزيادة السيطرة، يمثله في الرواية شخصية "زينو نات"؛ وهي شخصية مثقفة ثقافة اجتماعية تخدم المجتمع، تستغله جهات معينة لإيصال المعلومة، قضاء الحاجات بمقابل مادي؛ هذا النّوع من المثقف أوجده النظام الرأسمالي، بحسب غرامشي، ففي مديرية الثقافة التي تصوّرها الرواية كانت الحظوة الكبيرة لشخصية "زينو نات"؛ الذي هو في الحقيقة نوع من المثقفين الذين صنعهم المسؤول الكبير في وسط الثقافة، وأعطاه النص مهمات كثيرة يتولاها.

يُشارك المثقف العضوي "في المجتمع بنشاط، أي أنّه يُناضل باستمرار لتغيير الآراء وتوسيع الأسواق... هو دائم التنقل، دائم التشكّل" (سعيد، صور المثقف، 1993، صفحة 22)؛ الأمر الذي جعله متعدّد الوظائف الثقافية.

4. الخاتمة:

ما يمكن الخلوص له من خلال محاولتنا الوقوف على صورة الثقافة والمثقف في رواية "قصيد في التذلّل" للطاهر وطار أنّ:

- الدراسات الثقافية قد أسهمت في إضاءة الصلات التي تربط النص الروائي بالمجتمع والثقافة؛ من خلال محاولتها الوقوف على مختلف العلاقات الثقافية، كما تمثلها العادات والتقاليد والسلوكيات والتصرفات الجماهيرية، وعلاقاتها بموروثاتها الثقافية.
- صورة المثقف في الرواية مرهونة بالماديات والمناصب التي رهنته بها السلطة؛ مما يعني أنّ المجتمع الجزائري تحت الرهن، يواجه نوعا من التحدّي؛ لذا فهو يحتاج لمثقف يرفع عنه الرهن والتحدّي.

- صدمة الحداثة وما بعدها أوقعت المثقف في أزمة؛ ولم يعد قادرا على أداء الدور الموكل إليه، أصبح هو ذاته يتخبط في المجتمع، يُحاول الفكاك والخلاص، ويبحث عن من يُساعده ويأخذ بيده؛ مما يكشف عن تذلّل المثقف للسلطة بعد ما خسر قناعاته الفكرية.

وما يمكن تقديمه كتوصيات:

- ضرورة إعادة قراءة النصوص السردية الجزائرية بآليات المقاربة ما بعد الحداثية، خاصة آليات النقد الثقافي والدراسات الثقافية؛ للوقوف على النسق الثقافي المضمر في هذه النصوص، وتمثلات ما بعد الحداثة ومرجعيات النص السردي الجزائري؛ فهو كتابة لها صورها وملامحها القابلة للتمييز حسب التجارب والأجيال والاتجاهات، وبإمكان هذه القراءات أن تُسهم في بلورة نظرية نقدية خاصة بالدرس النقدي الثقافي الجزائري، تساير الحركة النقدية العربية وحتى الغربية.

5. مراجع البحث

1. إبراهيم أنيس وآخرون. (2004). *المعجم الوسيط*. مكتبة الشروق الدولية.

2. أحلام بوعلاق. (جوان, 2016). تأويل النصوص الأدبية من منظور الدراسات الثقافية: إدوارد سعيد أنموذجا. *فتوحات* .

3. ادوارد سعيد. (2011). *خيانة المثقفين*. (تر:أسعد الحسين، المحرر) دمشق، سوريا: دار نينوى.

4. ادوارد سعيد. (1993). *صور المثقف*. (غسان غصن، المحرر) بيروت: دار النهر للنشر.

5. الطاهر وطار. *قصيد في التذلل*.

6. برهان غليون. (1989). الأنتلجنسيا والسياسة والمجتمع . *مجلة الاجتهاد* .

7. تيري إيجلتون. (2012). ، *فكرة الثقافة*،. (جلال شوقي، المحرر) القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

8. حسين حاج مُحَمَّدي،. (بلا تاريخ). مدرسة برمينجهام، ماهيتها ورؤاها في بوتقة النقد والتحليل، .

9. دنيس كوش. (2007). *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية* ،. (منير السعيداني، المحرر) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

10. سمير خليل. (2014). *دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي –إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة*، . . بيروت لبنان : دار الكتب العلمية.

11. عبد الرحمن مُحَمَّد بن مكرم ابن منظور. (1996). *لسان العرب*. القاهرة، مصر: دار المعارف.

12. عبد الله إبراهيم. (2002). *النقد الثقافي: مطارحات في النظرية والمنهج والتطبيق. مجلة آفاق*، (العدد67).

13. عبد الله الغذامي. (2005). *النقد الثقافي:قراءة في الأنساق الثقافية العربية* ،. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

14. عبد الله الغذامي. *سقوط النخبة وصعود الشعبي*.

15. عبد النبي أصطيف. (2017). النقد الثقافي...الي أين ؟ *مجلة النقد الأدبي، ، المجلد (3/25)* (العدد 99،).

16. عبد النور جبور، و سهيل ادريس. (1983). *المنهل*. بيروت: دار الآداب.

17. غالي شكري. (1990). *المثقفون والسلطة في مصر 1990* . مصر: منتدى سور الأزبكية.

18. قبايلي عمر. (ماي, 2008). مدخل للثقافة الشعبية العربية ، مقاربة أنثروبولوجية. *الأثر ، مجلة الآداب واللغات* (7).

19. ك نلووف، ،. (2005). *موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي الكلاسيكي*. (عبد الغنى تر:إسماعيل، المحرر) القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.

20. مالك بن نبي. *القضايا الكبرى: مشكلة الثقافة*.

21. مالك بن نبي. (1984). *مشكلات الحضارة: مشكلة الثقافة*. (شاهين عبد الصبور، المحرر) بيروت، لبنان: دار الفكر المعاصر.

22. مُحَمَّد الدغمومي. (2001). *المفهوم والتواصل –مفهوم الثقافة نموذجا–* . الرباط المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم.

23. مُحَمَّد رجب الباردي. (1993). *شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة*. تونس: الدار التونسية للنشر.

24. مصلح الصالح. (1999). ، *الشامل ، قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية*. المملكة العربية السعودية: دار عالم الكتب للطباعة والنشر .